العِلْمُ وَبِنَاءُ الأُمَمِ

دِرَاسَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ لِدَوْرِ الْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلَةِ

د. راغب السرجاني

المشرف على موقع قصة الإسلام

www.islamstory.com

الفهرس

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

فأمة الإسلام أمة عظيمة!!

هذه حقيقة لا ينكرها إنسان.. وكيف تُنكَر وقد ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه في أكثر من موضع، بل لم يكتف بالإشادة بعظمتها، ولكنه ذكر تصريحًا أنها خير الأمم مطلقًا.. قال تعالي: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**[1]﴾، فهذه شهادة من رب العالمين الذي خلق الخلق أجمعين، ويعلم ما سبق من أمم، وما هو لاحق.. فهذا يثلج صدور المسلمين، ويزرع الثقة اليقينية في قلوب الأمة أنها مهما تقاوم عليها الزمان ستظل خير أمة أخرجت للناس.

ومع كون هذه الحقيقة ثابتة، إلا أن هذا لا يمنع أن يحدث للأمة هنّات وأزمات، ولا يُستغرب أن يأتي عليها زمان يتقدم عليها غيرها، وتتراجع الأمة بالتالي من المكانة السامية التي أرادها الله لها، ويُصدِّق ذلك قول ربنا في كتابه الكريم: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**[2]﴾ فليست هناك أمة - بما فيها أمة الإسلام - تبقى قوية أبد الدهر، وإنما تتناوب الأمم قيادة الأرض، ولكن وعد رب العالمين أن هذه الأمة الإسلامية العظيمة ستظل باقية إلى يوم القيامة.. قال تعالي: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**[3]﴾ وقال: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**[4]﴾.

وبرغم اطمئنان قلوبنا إلى هذه البشريات إلا أن النفس تتألم لرؤية الأمة في حالة ضعف أو سقوط، ويخشى الصادقون أن يكون ذلك بسبب تقصير من المسلمين، أو تفريط في قاعدة من قواعد العزة والنهوض.. وليس من شك في أن حال الأمة في زماننا هذا - برغم وجود مبشرات كثيرة - إلا أنه ليس كما نتمنى لهذه الأمة العظيمة ونرغب.. فأزماتنا كثيرة وفي مجالات متعددة، ومصائبنا جمة، والكوارث ما تركت ركنًا من أركان أمتنا إلا وحلت عليه ووقعت.. واتسع - كما يقولون - الخرق على الراقع!

[1] (آل عمران: 110) .
[2] (آل عمران: 140) .
[3] (الأعراف: 128) .
[4] (الأنبياء: 105) .

هل هذا وضع يَصْلُح معه سكوت؟!

إن الواجب علينا في ظل هذه اللحظات الأليمة التي تمر بالأمة أن نقف وقفات جادة أمام هذه الأحداث، فنشخص بدقة أسباب الانهيار، ونصف بصدق وأمانة العلاج الناجع الذي يعيد الأمة إلى مكانتها التي لا ينبغي أن تتخلف عنها..

إن الأمم لا تُبنى بسهولة، كما أنها لا تُبنى بطريقة عشوائية!!

إن بناء الأمم أمر صعب يحتاج إلى جهود متضافرة، وصبر طويل، وعزم أكيد، وهو - في نفس الوقت - يسير وفق خطوات محددة، وسنن ثابتة، لا تبديل لها ولا تغيير، قال تعال: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[5].

وعلى الأمة في لحظات ضعفها أن تدرس بعمق الأسس التي ينبغي للأمة أن تُبنى عليها، حتى لا يصبح بناؤنا هشًا ينهار مع أي عاصفة..

إننا يجب أن نتدبر في سنن بناء الأمم التي جاءت في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وفي سنه رسولنا ﷺ، كما يجب أن نتدبر في سنن بناء أمتنا في مراحلها السابقة، وكيف استطاع المغيِّرون والمجدِّدون من أبناء الأمة المخلصين أن يحوِّلوا الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والهوان إلى سيادة وتمكين..

وفوق ذلك فإن على المسلمين أن يدرسوا بعمق تجارب بناء الأمم المختلفة من عموم أهل الأرض، وليس بالضرورة أن تدرس تجارب المسلمين فقط، بل على العكس، إن على المسلمين أن يستفيدوا من ميراث الإنسانية، وذلك - بطبيعة الحال - دون التنازل عن شيء من ثوابتنا، أو التخلي عن أمر من شريعتنا..

وبدراسة متأنية لكتاب الله عز وجل، ولأحاديث الرسول الكريم ﷺ، والقصص والتاريخ، وكذلك لأحداث الواقع، يتبين لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - عدة عوامل تُسهم بشكلٍ متفاعل في بناء أي أمة، ويأتي على رأس هذه العوامل - وبشكلٍ لافت جدًا للنظر -:
"**العلم**"!

وهذا الذي ذكرت ليس خاصًا بأمة الإسلام وحدها.. إنما هو أمر ضروري لازم لكل من أراد القيام.. مسلمًا كان أو غير مسلم..
وشواهد ذلك من القرآن والسنة - كما سيتبين لنا خلال صفحات هذا الكتاب - لا تحصى ولا تعد..

---

[5] (فاطر: 43) .

والعلم الذي أعنيه هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، بل العلم الحياتي أيضًا، ويشمل ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا، وغير ذلك من علوم تصلح بها حياة البشر وتتحسن معيشتهم، فهذا علمٌ لابد منه، وهو يُكوِّن – مع العلم الشرعي- دعامة رئيسية من دعامات الأمة الإسلامية.

ولا يخفى على الناظر إلى حال أمتنا أن قضية العلم لم تأخذ مكانها المناسب في اهتمام المسلمين، على الرغم من التركيز الواضح على هذه الوسيلة المهمة في بناء الأمم في كلمات القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك في أقوال الصالحين والمخلصين من أبناء هذه الأمة.

ولعلَّ عدم دخول العلم في بؤرة اهتمام المسلمين هو أحد أهم الأسباب للحالة غير المُرْضية التي عليها أمتنا في زماننا الحالي.. ويصبح واضحًا لجميع أنه لن تقوم الأمة من جديد إلا عندما ينشأ جيل يضع قضية العلم هذه في مكانها الذي ينبغي أن تكون فيه، كأولوية من الأولويات المهمة جدًا في اهتمامات الأمة كلها..

وكمحاولة لوضع لبنة في صرح الأمة الإسلامية فكّرت في جمع ما يؤيد أهمية العلم في إعادة الأمة إلى مكانها الصحيح، فتجولت في صفحات القرآن الكريم وسنة الرسول ، وعدت إلى حياة الصحابة ، والتابعين رحمهم الله، وقرأت سِيَر العلماء والمجدِّدين، ودرست تجارب الأمم التي كان لها نصيب في الصدارة والتمكين.. فعلت ذلك وغيره، وجمعت من هنا وهناك، ورتبتُ وصنفتُ ما عندي من أوراق.. فكان هذا الكتاب!!

أسأل الله عز وجل أن ينفع الأمة الإسلامية بكل حرف في هذا الكتاب، وأن يقرَّ أعيننا برؤية أمتنا عظيمة رائدة، وأن يجعل ذلك كله في ميزان حسنات كل من ساهم في هذا العمل أو استفاد منه..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل..

د. راغب السرجاني

للحصول على الكتاب:
القاهرة: م/ 0116500111
أو عبر الموقع الإلكتروني : www.aqlamonline.net.
البريد الإليكتروني : info@aqlamonline.net.